الفصـــل الثـــالث

فكـــر « النخبة »

والطابع التوفيقى لـ « المبادئ الاربعة »

حاولنا فى الصفحات الماضية ، ان نقدم للقارىء صورة مجملة عـــن حصيلة التعليم فى المغرب على عهد الحماية ، مركزين على أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية . وقد رأينا كيف أن هذا التعليم قد ادى ، فى نهايـــة المطاف ، الى تركيز الانفصام فى الشخصية المغربية ، وتعميق الهـــوة بيـــن النخبة العصرية التى تلقت تعليمها فى المدارس الرسمية (الاسلاميـــة منهـــا والاوربية) ، وبين النخبة التقليدية التى انتجها تعليمنا الوطنى (الاصلى منـــه والحر) ، مما أدى الى خلق عقليتين مختلفتين ، أو **نمطين فكريين ، متنافرين الى حد بعيـــد** .

لقد كان النمط الاول ، فى جملته ، **غربيا** فى تكوينه وميوله ، مؤطرا ضمن قوالب **الثقافة الاستعمارية** التى تلقاها . ولكنه اذ يطمح الى الاخذ بالنموذج الفرنسى فى جميع مرافق الحياة ، كان يجد نفسه يعانى من تناقض وجدانـــى حاد : ان شعور الاعجاب بالغرب وثقافته وتقنيته وأساليبه وكـــل مظاهـــر حياته ، يكبله شعور بالحذر والتحفظ ازاء هذا الغرب نفسه ، الـــذى هـــو

المستعمر ذاته ، ويشوش صفاءه احساس غامض بماض مزدهر ، وحضارة يعترف بها التاريخ ، هما الماضى المغربى والحضارة العربية الاسلامية .

اما النمط الثانى فلقد كان مغربيا عربيا اسلاميا **تقليديا** ، مشدودا الى الماضى بالف وثاق ، الماضى المجد الى ابعد حد ، مما جعله ينتزع منه ، بشعور او بدون شعور ، صورة المستقبل المأمول .. لم يكن هذا الفريق فى قطيعة نهائية مع الغرب ، بل انه كان ، بالرغم من صورة الماضى الممجد التى استحوذت على ذهنه استحواذا ، يعيش بعض مظاهر الحضارة الغربية، ويتوق الى ان ينال منها ابناؤه حظا اوفر . ولذلك بقى مستعدا — فى حدود معينة — للدخول مع الغرب فى حوار ما ، حوار محدود ، تلفه بطانة وجدانية سميكة من التحفظ والحذر .

قد يبدو ، من خلال هذا الذى قلناه ، ان هناك ، على كل حال ، نقطة التقاء بين الجانبين ، ما دام الاول منهما مندفعا **كثيرا** الى الغرب ، متمسكا قليلا بالمقومات الوطنية ، وما دام الثانى ، على العكس من ذلك ، **اكثر** تمسكا بهذه المقومات ، **واقل** اندفاعا الى الغرب .

هذا صحيح ، ولكن فى حدود ضيقة جدا .. حدود زاد من ضيقها ، ليس فقط اختلاف المنطلقات والمسبقات والمفاهيم ، بل ايضا **اختلاف تصور كل منهما لميدان الآخر** ، الشىء الذى يجعل من كل حوار محتمل ، حوارا اكثر بطئا ، واشد عقما من حوار الصم .

لم **تكن للجانبين لغة ثقافية واحدة مشتركة** ، وبالتالى فان مصادر معرفة كل منهما بميدان الآخر ، لم تكن واحدة ولا مباشرة . لقد اكتسب الجانب الاول — الجانب العصرى — احساسه الغامض بماضى المغرب ، وبالحضارة الاسلامية عموما ، بواسطة ما كتبه الفرنسيون خاصة والمستشرقون عامة . واكتسب الجانب الثانى شعوره بضرورة التفتح ، ولو بعض الشىء ، على

الغرب وحضارته ، عن طريق ما كتبه عرب المشرق ، وهكذا **تعرف الاول منهما على الشرق بواسطة الغرب ، وتعرف الثانى على الغرب بواسطة الشرق .**

ان هذه المعرفة غير المباشرة لميدان «الخصم» جعلت كلا من الفريقين يتحفظ ، ليس فقط من الاندفاع الى ميدان الآخر سلبا أو ايجابا ، بل حمله أيضا على الشك فى مدى معرفته به . وفى مثل هذه الحالة يصبح السكوت — مع بعض المجاملة — افضل الف مرة من كل حوار او اصطدام .

من هنا يمكن أن نتبين احد الاسباب الرئيسية فى عدم قيام اى نشاط فكرى فى المغرب خلال الفترة التى اعقبت الاعلان عن الاستقلال . اننا نفتقد ذلك النقاش الفكرى والسياسى الذى يقوم عادة على صفحات الجرائد والمجلات والكتب عند ما يجتاز وطن ما ، منعطفا تاريخيا ، كذلك المنعطف الذى اجتازه المغرب من جراء «انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية» (1) ، وهذا أيضا ما جعل السياسيين عندنا يحجمون — فى السنوات الاولى من الاستقلال — عن طرح اختلافاتهم السياسية أو المذهبية على صعيد الادب السياسى المكتوب . لقد ظل النقاش محدودا فى الاروقة والكواليس ، الشىء الذى مكن الجميع من لجم الصراعات ، وافساح المجال واسعا للتكتيك وما يتبعه من حلول وسطى توفيقية مؤقتة .

السكوت عن المشاكل الحقيقية ، واجتناب طرحها على العموم ، والالتجاء الى التكتيك والحلول الوسطى ، والظهور بمظهر « الاتحاد والانسجام » ... تلك هى أبرز الصفات التى سيطرت على العلاقات القائمة بين عناصر النخبة المسيرة غداة الاستقلال ، وبالتالى المعالم البارزة للاطار

(1) جملة من خطاب المغفور له الملك محمد الخامس عند عودته من المنفى. (نوفمبر 1955) .

العام الذى كانت تلتمس داخله الحلول لمختلف المشاكل المطروحة ، وعلى راسها مشكل التعليم .

* * *

على ان الحاحنا على هذا الجانب السيكولوجى ، يجب ان لا يحجب عنا الجانب **الموضوعى** — الاجتماعى والاقتصادى — الذى كان له دور اساسى ورئيسى فى صياغة هذا الموقف الذى وقفته النخبة القيادية من مختلف المشاكل المطروحة . وهنا لا بد من التذكير بمعطيات أساسية فى الموضوع .

لقد كانت النخبة التى تولت زمام الامور عقب الاستقلال ، هى نفسها تلك التى تحدثنا عنها فى الصفحات الماضية : النخبة التى تمخض عنها تعليم الحماية الفرنسية فى المغرب . لقد كانت هى وحدها المؤهلة — اجتماعيا وثقافيا — لتولى المسؤوليات . وكما اشرنا الى ذلك من قبل ، فان هذه النخبة كانت ، فى الاعم الاغلب ، تنتمى الى العائلات الارستقراطية ، والبورجوازية الناشئة ، التجارية منها والعقارية والزراعية . ان تحليل **فكر** هذه النخبة واسلوبها فى معالجة الامور ، يتطلب التذكير **باصولها الاجتماعية**، وجذورها **الطبقية** . واذا كان المجال هنا لا يتسع لعرض مفصل حول نشاة البورجوازية المغربية وتطورها ، فلا اقل من الاشارة المركزة الى الخطوط العامة التى تعيننا على تصور ما كان بامكانها أن تفعل ، عندما تولت مسؤولية التسيير غداة الاستقلال .

بدأت براعم البورجوازية المغربية تتفتح ابتداء من النصف الثانى من القرن الماضى ، وهو التاريخ الذى بدأ فيه النفوذ الاستعمارى — التجارى منه خاصة — يتوطد فى المغرب . لقد بدأت ، آنذاك ، جماعة « التجار » التقليديين تتعرف عن كثب على أوربا وأساليبها الحديثة — خاصة فى ميدان المبادلات — وتحاول أن تقتبس منها وتستفيد من خبراتها . وبما أن هذه الطلائع البورجوازية المغربية كانت ، بحكم تكوينها وظروف نشأتها ، عاجزة عن منافسة البورجوازية الغربية ونفوذها الاقتصادى والسياسى ، وبما انها

كانت ، من جهة اخرى ، عاجزة ، نظرا لضعفها عددا وعدة ، عن القيام في المغرب بمثل الدور التاريخي الذي قامت به البورجوازية الاوروبية في بلدانها ، الشيء الذي جعلها تعيش مكرهة تحت رحمة الاوضاع الاقطاعية وشبه الاقطاعية القائمة والموروثة ، فانها ، نظرا لذلك كله ، بقيت مجرد بورجوازية هجينة ووظيفية ، تقوم بدور الوسيط للراسمالية الغربية ، مقابل ما تستفيده من « سخرتها » هذه ، وايضا من اجل أن تضمن لنفسها نوعا من الحماية يتيها ضربات المخزن (نظام الاحتماء) .

وعندما فرضت معاهدة الحماية على الشعب المغربي (1912) ، واخذ جيش الاحتلال الفرنسي يوطد «الامن» في البادية المغربية ، وجدت طلائع بورجوازيتنا مجالا اوسع لكسب الربح ، وذلك عن طريق «شراء» الاراضي التي تركها اهل البادية الذين غادروا مواطنهم — خاصة في الضواحي القريبة من المدن الكبرى — تحت ضغط الاحتلال ، ثم استغلالها بواسطة «الخماسين» و «الرباعين» واشباه الاجراء ، كما تمكنت أيضا من توسيع مجال مبادلاتها التجارية في المناطق البدوية الاخرى التي «استتب» فيها «الامن» ، ولم يغادرها اهلها ، أضف الى ذلك كله استفادتها من الاساليب الحديثة (المصارف ، تغيير العملة، طرق المواصلات .. الخ) التي بدات سلطات الحماية الفرنسية في اقرارها .

كل ذلك جعل البورجوازية المغربية الناشئة تنتعش ، وفي نفس الوقت تزداد اعجابا بالحماة الجدد . ولكن هذا «الاعجاب» لم يكن صافيا ولا تاما . فالطلائع البورجوازية هذه ، تنتمي الى ارستقراطية تقليدية (تجارية — دينية — علمية — عقارية — مخزنية) لم يكن من السهل عزلها عن تراثها ، ولا فصلها عن العادات والتقاليد والاعراف التي كانت تشكل جزءا اساسيا من هويتها ، خصوصا والحماية الفرنسية تشكل ، بوصفها غزوا اجنبيا

«نصرانيا» ، تحديا سافرا لقيمها وماضيها ومقومات الحضارة التى تنتمى اليها ، ولذلك بقى اعجابها بالاساليب الحديثة التى ادخلتها الحماية الى المغرب ، وانشراحها للافاق الجديدة التى فتحتها لها اول الامر ، بقى كل ذلك مشوبا بالحذر والتحفظ .

وقد تاكد هذا التحفظ والحذر عندما بدا الامر يستقر بالفرنسيين ، اى عندما اخذوا يقيمون مؤسسات تجارية واقتصادية صناعية فى البلاد ، وعندما اخذ المعمرون يستولون على الاراضى الخصبة . . . عندئذ ضويقت البورجوازية المغربية فى مجالها الحيوى ، التجارى والزراعى بالخصوص ، فخاب ظنها — او كاد — فى حسن نية الفرنسيين ، وتاكد لديها ان ما كانت تحلم به من ان الحماية **ستاخذ بيدها** وتساعدها على النمو والتطور ، انما هو مجرد سراب . لقد اصطدمت بحقيقة مرة ، وهى ان البورجوازية الفرنسية اصبحت تضايقها فى عقر دارها ، بل وتهددها فى مصادر ثروتها ، فكان رد فعلها : **الاحتجاج والمطالبة بالحقوق والاصلاحات** . . الخ . . وتلك كانت **بداية قيام الحركة الوطنية المغربية** .

وعلى الرغم من أن الحركة الوطنية المغربية قد بدات حركة اصلاحية ، تولت قيادتها البورجوازية التجارية والارستقراطية التقليدية ، وعلى الرغم من أن مطالبها لم تكن تتعدى اول الامر تطبيق بنود الحماية ، اى المطالبة بوفاء السلطات الفرنسية بما وعدت به من اصلاحات تمكن المغرب — وبالذات البورجوازية المغربية — من التطور السريع نحو وضع قار يسمح له بتسيير شؤونه بنفسه ، على الرغم من ذلك كله فان اتساع مجال دعايتها الى الاوساط الشعبية ، وخاصة اليد العاملة العصرية التى خلقتها المؤسسات الراسمالية التى اقامها الاستعمار الفرنسى بالمغرب ، بالاضافة الى احتكاك القيادة الوطنية بالحركات التحريرية والاوساط الليبرالية فى الخارج ، مع ما رافق ذلك من انفتاح آفاق جديدة نتيجة الحرب العالمية

الثانية .. ان ذلك كله ، قد جعل الحركة الوطنية المغربية تجذر من مطالبها وتطرح شعار **الاستقلال** ، الشعار الذى تجاوبت معه وتبنته كل القيادات التقليدية على اختلاف انتماءاتها ودرجات مسؤولياتها . وهكذا تكون حلف وطنى أخذ يتقوى باستمرار نتيجة ردود الفعل العنيفة التى قامت بها سلطات الحماية .

لقد كان هذا الحلف الوطنى يضم البورجوازية المغربية الناشئة ، بقسميها التجارى والزراعى ، والارستقراطية التقليدية الدينية منها والعلمية والسياسية ، وجماهير الشعب المغربى بمختلف فئاته .. ولقد زاد من **تماسك هذا الحلف** التجاء سلطات الحماية الى خلق **«قوة ثالثة»** قوامها جماعة من القواد والباشوات الاقطاعيين الذين جعلتهم عزلتهم المديدة فى البادية يشعرون بذلك العداء التقليدى الذى كان يشعر به البدوى ازاء الحضرى طوال فترات مهمة من تاريخ المغرب . لقد كانت هذه «القوة الثالثة» تشكل تهديدا خطيرا للبورجوازية الحضرية ، سرعان ما أدركت مغزاه ، **فاندفعت تتمسك بأذيال المخزن** ، بوصفه السلطة العليا التى ترأس الكل .

فى اطار هذا «الحلف الوطنى» تشكل «فكر» هذه النخبة التى تولت زمام الامور غداة الاستقلال . لقد كان هذا الحلف ثلاثيا : 1) البورجوازية الوطنية التى ظلت تقوم بدور الوسيط للراسمالية الغربية ، وبالتالى بقيت تسير فى ركابها اقتصاديا وايديولوجيا ، مع احتفاظها دوما برواسب ضبابية من الفكر الوطنى التقليدى . 2) الارستقراطية الدينية العلمية السياسية التى ظلت متمسكة بالفكر الوطنى التقليدى كعملة صالحة للترويج فى كل مناسبة . 3) جماهير الشعب الكادح المحروم وأطره المناضلة التى قادت كفاح شعبنا فى التحرير وتحقيق الاستقلال والتى بدأت تتفتح فكريا على التيارات التحررية التى هبت على العالم الثالث منذ بداية الخمسينيات .

وبما أن هذا «التحالف الوطنى» كان — **موضوعيا** — فى صالح النخبة

التى نتحدث عنها ، لانه مكنها من احتلال مركز القيادة جنبا الى جنب مع الزعامة الرسمية التقليدية ، فان كل همها كان — غداة الاستقلال — التوفيق بين مصالحها ومصالح هذه الزعامة بشكل يضمن ، فى نفس الوقت ، ولاء الجماهير الشعبية ، وسكوت الاطر الشابة التى كانت قد بدأت تتحرك وتتساءل وتنتقد . . .

واذن فلقد كان شغلها الشاغل هو ايجاد صيغ تمكنها — امام المشاكل التى بدأت تبرز وتشتد — من **التوفيق** بين مصالحها ومصالح الطرفين الآخرين فى الحلف . **ومن هنا اكتسى فكرها ، وطريقة معالجتها للمشاكل، طابعا توفيقيا يتجنب طرح المشاكل على حقيقتها ، ويحاول دوما البحث عن الحلول الوسطى ، عن الصيغ التوفيقية التى ترضى الجميع ، او على الاقل تحمل الاطراف المختلفة على السكوت والانتظار ولو الى حين .**

من هنا ندرك الطبيعة التوفيقية لـ «**المبادىء**» التى اقرت كاساس لـ «مذهب» التعليم فى المغرب المستقل ، «**المبادىء الاربعة**» المشهورة : **التعميم ، والتوحيد ، والتعريب ، ومغربة الاطر .**

قبل ابراز الطابع التوفيقى لهذه «المبادىء» لنعرج اولا على المظهر ، او المظاهر ، التى اكتساها التعليم فى بلادنا فى السنوات الاولى من الاستقلال .

* * *

لقد ابرزنا فى الفصل السابق الطابع الاستعمارى — النخبوى للتعليم فى المغرب على عهد الحماية ، وبينا أن هذا التعليم كان بدون مردود : فعلاوة على ضآلة نسبة القبول فى الابتدائى ، كان جل التلاميذ لا يتمكنون من انهاء السلك الذى ينتمون اليه ، بل يطردون ، او ينقطعون ، دون مستوى الشهادة الابتدائية ، مما جعل الآباء يدركون انه لا فائدة فى ارسال ابنائهم الى المدارس، ما داموا سيغادرونها بعد سنوات ، دون الحصول على اية مؤهلات تضمن لهم

وضعية افضل عندما يلجون الحياة العملية . **لقد ادرك الآباء ان «المدارس» تفسد عليهم ابناءهم** : فلا هم يرونهم يتخرجون بمؤهلات علمية كافية ، ولاهم يستطيعون الاستعانة بهم فى أعمالهم اليومية ، والاحتفاظ بهم كمساعدين او «عمال» بدون أجرة ، يشتغلون فى الحقل ، أو الدكان ، أو «المصنع» .

كان هناك ، اذن ، نفور عام من هذا التعليم ، الذى لا يخرج سوى المشردين ، المتمردين على العائلة والتقاليد ، المحرومين من كل «صنعة» مفيدة . ولقد تقوى هذا النفور واكتسب صبغة عداء ، عاد ما تبين أن هؤلاء الذين يلتحقون بالمدارس «العصرية» يغادرونها دون أية معرفة بالدين والاخلاق ، بل كثيرا ما «ينحرفون» ويتنكرون سرا أو علانية للتقاليد الموروثة (يلبسون اللباس العصرى ، يحلقون رؤوسهم على طريقة النصارى ، يدخنون ..) ، أضف الى ذلك أن مصيرهم بعد التعليم ، اذا ما تعلموا ، سيكون حتما العمل مع سلطات الحماية ، اما فى الادارة ، واما فى المؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية ، الشىء الذى كان يؤهلهم لان يصبحوا متعاونين ، بشكل او بآخر ، مع الحماية الفرنسية ، لا ثائرين ضدها .

واذن ، فلقد كانت هناك عوامل عديدة ، متداخلة متشابكة ، جعلت جماهير شعبنا تعرض اعراضا واسعا عن ارسال أبنائها الى المدارس الفرنسية ، لقد اكتسى هذا الاعراض عدة اشكال : فمن مجرد عدم الاقبال عليها ، الى مقاطعتها باصرار ، الى اخفاء الاولاد وتهجيرهم ، الى التحايل والاستعانة بالوسائط عندما يطلبون لتسجيلهم فى المدارس .

كانت هناك ، اذن ، **مقاطعة** شبه جماعية وشبه منظمة — خاصة فى الاوساط الشعبية — لمدارس الحماية . لم تكن هذه المقاطعة احتقارا للتعليم او اعتقادا بعدم جدواه .. بل كانت نوعا من «**الكبت**» الارادى . اما «**البديل**» فلقد كان الانتظار .. **انتظار عهد الاستقلال** ، حيث سيتوفر المغرب على تعليم وطنى يلبى مطامح شعبنا فى التعليم والثقافة والشغل .

وهكذا ، فبمجرد الاعلان عن الاستقلال ، انفجرت هذه الرغبة «المكبوتة» لدى جماهير شعبنا ، رغبتها في تعليم ابنائها ، واعدادهم للمستقبل المأمول ، فاصبحت المدارس تحاصر ليل نهار ، ولمدة اسابيع ، خلال بداية كل موسم دراسي عرفته السنوات الاربعة التي تلت الاعلان عن الاستقلال ، تحاصر من طرف الآباء والامهات الذين ينتظرون تسجيل ابنائهم ، ويلحون على عدم مغادرة ابواب المدارس الا بعد الحصول على المقاعد المطلوبة .

لقد كانت ظاهرة غريبة حقا ، تلك التي عرفتها مدارسنا خلال السنوات الاولى من عهد الاستقلال ، لقد ترك الآباء اشغالهم ، وغادرت الامهات والاخوات منازلهن ، ليرابط الجميع ، ولمدة عدة ايام بلياليها امام المدارس ، عند بداية كل موسم دراسي ، واملهم الوحيد في الحياة التمكن من تسجيل الاولاد في قسم من اقسام المدرسة .

لقد فسرنا هذه الظاهرة الفريدة بكونها عبارة عن رغبة جامحة في التعليم تم كبتها — ارادياً — خلال عدة سنوات ، وكان اعلان الاستقلال بمثابة «**تطهير**» لاسباب وعوامل هذا «**الكبت**» ، ويمكن أن نضيف الى ذلك عاملا آخر كان له اثره الكبير في الاعداد لهذا الانفجار .. نقصد بذلك الدور الذي قامت به الحركة الوطنية ، واساليبها في تحميس الشعب من اجل مناهضة المستعمر والنضال من اجل الاستقلال .

لقد كان اسلوب الحركة الوطنية في «**تشغيل**» الجماعات الحزبية يعتمد في الاعم الاغلب على **الدعاية والتحميس** والوعظ والارشاد ، اكثر من اعتماده على طرح المشاكل الموضوعية ومناقشتها ، وتوعية الجماهير بحقيقة الاوضاع القائمة وآفاق النضال الذي يتحتم خوضه في معركة بناء الاستقلال . لقد لجأت بعض الاطر الحزبية ، وحتى القيادة نفسها ، الى اسهل الطرق ، والى اشدها ضررا ، في نشر «الوعي» الوطني وتعميمه . وهكذا طرحت

التداول ، وبشكل واسع ، نعوت «الكفر» و «والزندقة» و «الخيانة» لتلصق ، بحق أو بغير حق ، بكل من «ينحرف» قليلا أو كثيرا عن الركب الذى تقوده الحركة الوطنية ، سواء كان هذا «الانحراف» داخل الركب او خارجه . وبالمقابل كانت الصورة البديلة التى تعطى للجماهير الحزبية عن مغرب الاستقلال المنتظر ، لا يماثلها فى بريقها الا صورة الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين . ولهذا السبب ترسخ لدى جماهير شعبنا انه بمجرد الاعلان عن الاستقلال سيجد **كل الاطفال** المقاعد الخاصة بهم فى مدارس وطنية حقة ، كما سيجد كل جائع أو فقير **الخبز** الذى يكفيه ويكفى أولاده (1) .

هذا النوع من الدعاية الرخيصة قد اخفى على جماهير شعبنا ، ولربما حتى على القيادة نفسها ، حقيقة المشاكل التى ستطرح غداة الاستقلال ، وبالتالى فان هذه الدعاية قد هيأت الجو لحدوث ذلك الانفجار ، انفجار الرغبة الشعبية الملحة فى تعليم الابناء ، تلك الرغبة التى عبرت عن نفسها ، وبكيفية عملية ، **بمحاصرة المدارس ليل نهار ، المحاصرة التى شكلت اول ضغط جماعى من طرف الجماهير على الحاكمين آنذاك .**

* * *

قد تصلح هذه العوامل السيكولوجية مجتمعة ، لتفسير ظاهرة «الانفجار التعليمى» الذى نتحدث عنه . **ولكنها فى الحقيقة لا تفسر الا مظاهرها السطحية . اما الاسس الموضوعية لهذه الظاهرة الاجتماعية فيجب ان نتلمسها فى الميدان الاجتماعى نفسه ، ميدان العلاقات الطبقية .**

لقد جمع هذا الحلف الوطنى الذى تحدثنا عنه قبل قليل ، جنبا الى جنب،

---

(1) لقد انتشرت دعاية حزبية داخل «الجماعات» مفادها أن مدخول الفوسفاط يكفى وحده لضمان العيش اليومى لجميع افراد الشعب المغربى . وانه سيكون بالامكان بمجرد الحصول على الاستقلال، أن يتوصل كل فرد، وكل صباح، بمبلغ ألف فرنك ، كنصيبه من عائدات الفوسفاط .. !

البورجوازية «المصرية» ، والارستقراطية التقليدية ، و «الطبقات» الوسطى والجماهير الشعبية المحرومة . ان الكفاح الوطنى يخفى دوما الصراع الطبقى. ان التناقض الاساسى ، يومذاك ، كان بين المغاربة ككل ، وبين الحكم الاجنبى المتمثل فى نظام الحماية ، اما التناقضات الطبقية فلقد بقيت ثانوية هامشية ، تتمظهر ، عندما تشتد ، بمظهر «الصراع العنصرى» ، واحيانا بمظهر التقليد والرغبة فى تسلق السلم الطبقى .. لقد كان من الممكن أن ينفجر هذا الحلف الوطنى ، بفعل تناقضاته الطبقية الخفية لو أن مسيرة الكفاح من اجل الاستقلال طال بها الامد مدة كافية لتحويلها الى ثورة حقيقية ، ثورة يلعب فيها الصراع الطبقى دورا اساسيا ، لو ان الفرنسيين لم يسارعوا الى اعداد طبخة «ايكس ليبان» تحت تأثير الخوف من امتداد لهيب الثورة الحقيقية الى كل من تونس والمغرب ، بعد قيام الثورة الجزائرية .

لقد عمد الفرنسيون الى حل المشكل مع المغرب وتونس حلا سياسيا وسطا ، وبالتالى اجهضوا الثورة المغربية فى مهدها . وقد ساعدهم على ذلك عاملان اساسيان : **اولا** تمكنهم من انشاء «**قوة ثالثة**» استعملوها كتهديد للحركة الوطنية وقيادتها ، وبالتالى فرض الحل الذى يريدون .. **ثانيا** طبيعة التركيب الاجتماعى للحركة الوطنية نفسها ، وعدم توفر قيادتها البورجوازية على جذور عميقة تمكنها من مواصلة قيادة المسيرة النضالية ، وبالتالى استعدادها للتنازل وقبول «الحل الوسط» ، قبل أن تفلت الامور من ايديها .

ومهما يكن ، فان الاعلان عن الاستقلال بالشكل المعروف ، كان لا بد أن يحرك التناقضات الطبقية داخل الحلف الوطنى ، خصوصا والاستقلال يعنى استلام القيادة البورجوازية زمام السلطة فى المجتمع ، الشىء الذى كان لا بد أن يعمل على الكشف عن الطابع الانتهازى المصلحى لعدة عناصر قيادية ، فى الحركة الوطنية بقسميها البورجوازى «العصرى» ، والارستقراطى التقليدى .

لقد بدا واضحا للجماهير الشعبية ، غداة الاستقلال ، أن ما كانت تحلم به نتيجة الوعود البراقة التى روجتها قيادة الحركة الوطنية ، لم يكن سوى سراب . وبما أن وعيها الطبقى كان ضعيفا خافتا ، فانها لم تتردد فى **ربط السلطة وبالتالى الغنى ، بالتعليم** : ان الذى مكن النخبة من ثروتها ، وأهلها لاستلام مراكز المسؤوليات ، كان فى المنظور الجماهيرى آنذاك ، هو **التعليم** .

واذن ، **فان «الانفجار التعليمى» الذى نتحدث عنه ما هو فى حقيقته وجوهره سوى شكل من اشكال الصراع الطبقى** . لقد ادركت جماهير شعبنا ، بوعيها الساذج آنذاك ، ان مفتاح الحصول على وضعية مادية ومعنوية لائقة، وان الطريق الى السلطة والنفوذ ، بمختلف مستوياتهما ، هو التعليم . ولذلك بادرت بالدفع بأبنائها ، جملة ، الى المدارس ، مصرة على قبولهم فيها ، سواء توفرت المقاعد او لم تتوفر ، لقد ترسخ فى ذهن الجماهير الشعبية ان الحصول على مقاعد مدرسية لابنائها يعنى ضمان تأهيلهم لتولى المناصب الادارية والوظائف الحكومية . لقد ظل التعليم لدى الشعب المغربى غداة الاستقلال خاضعا لهذا التصور : **تلميذ اليوم هو حاكم الغد** . . ذلك ما تنبهت اليه ، خلال عهد الحماية ، البورجوازية المغربية . وهذا ما ادركته اخيرا الجماهير الشعبية .

* * *

لقد وجدت النخبة الحاكمة نفسها ، غداة الاستقلال ، امام هذا الضغط الشعبى الجارف الذى يفرض نوعا من «اجبارية» التعليم . وبطبيعة الحال لم تكن تخفى عليها الدلالات السياسية والطبقية لهذه الظاهرة . ولذلك وجدت نفسها مجبرة على البحث ، بسرعة ، عن حلول لهذا المشكل ، قبل ان يتطور الامر «الى ما لا تحمد عقباه» .

فما هى ، اذن ، **هذه الحلول** ؟

يمكن التاكيد من الان انها ستكون من النوع **التوفيقي** ، الذى يلائم طبيعة «فكرها» ، وانها ستكون كذلك حلولا سريعة ارتجالية ، سطحية ومؤقتة . وهذا ما حصل بالفعل .

من الناحية العملية : اضطرت الحكومات الاولى ، غداة الاستقلال ، الى قبول اكثر ما يمكن من التلاميذ فى المدارس الابتدائية ، مما جعل تعليمنا الابتدائى يقفز ، من حيث الكم ، قفزة هائلة (1) ، أما الوسائل التى استعملتها فكانت كما يلى :

— **من حيث الحجرات** : استعملت البنايات المدرسية التى كانت قد بدات سلطات الحماية فى بنائها قبل الاستقلال ، بالاضافة الى بنايات مدرسية اخرى كانت مخصصة للتعليم الذى من النوع الاوربى ، والتى كانت البعثة الثقافية الفرنسية قد بدات فى تسليمها تدريجيا لوزارة التعليم المغربية .. على أن اهم وسيلة مكنت الحكومة المغربية من الاستجابة للضغط الشعبى حول المدارس ، هو احداث **نظام التناوب ونصف الحصة** ، حيث اصبحت الحجرة الواحدة تستقبل يوميا فوجين او اكثر من التلاميذ ، وهو نظام ما زال العمل جاريا به الى الآن فى بعض الاقسام الابتدائية . وسنعود الى الحديث عنه فيما بعد .

— **من حيث الاطر التعليمية** : عمدت وزارة التعليم الى توظيف كل من «يحسن» القراءة والكتابة بالعربية او الفرنسية ، صغارا كانوا او كبارا ، عاطلين كانوا او محترفين لمختلف المهن الحرة . لقد كان كل من يحمل الشهادة الابتدائية ، او يأنس من نفسه أنه فى مستواها يلتحق كـ «معلم» فى المدارس الحكومية . وقد أحدثت دورات تكوينية لهؤلاء قصد تزويدهم بشىء ما من

---

(1) سندرس تطور التعليم فى المغرب من حيث الكم منذ الاستقلال الى اليوم فى الفصل الخامس.

المعلومات العامة و «الاساليب البيداغوجية» فى اطار مـــا كان يسمى بـــ «التكوين السريع» .

لقد فرضت جماهير الشعب على المسؤولين نوعـــا من «اجباريـــة» التعليم ، ليس فقط بالنسبة للاطفال الصغار الذين هم فى السن «القانونى» ، بل ايضا لمختلف الاطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد ، وقد وقـــع التفكير ، بالنسبة لهؤلاء ، فى احداث «سلك للانقاذ» خاص بهم ، كما نظمت وعلى نطاق واسع دروس لمحاربة الاميـــة .

ان فتح المجال لاكبر عدد ممكن من التلاميذ ليلتحقوا بالمدارس ، كان ، بطبيعة الحال ، خطوة أولى عملية نحو «**تعميم**» التعليم . كما ان توظيف كل مغربى «يحسن » القراءة والكتابة ليقوم بمهام التدريس ، كان ايضا خطوة اولى عملية نحو «**تعريب**» التعليم ، باعتبار ان جل الذين التحقوا بالتدريس كانوا من الذين يعرفون العربية وحدها ، أما مزدوجو اللغة او الذين يحسنون الفرنسية فقط فلقد التحقوا بالادارات والوظائف الاخرى التى كانت تمنحهم اجورا احســـن .

واذا اضفنا الى ذلك ان هذا القبول الواسع فى التعليم الرسمى يعنـــى فى حقيقة الامر الدفع بالتعليم الحر والتعليم الاصلى الى نقطة هامشية نائية ، على خريطة تعليمنا ، ادركنا ان «**توحيد**» التعليم قد فرض ، هو الآخر نفســه ، على صعيد الواقع .

واذن فلقد فرض الضغط الشعبى ، فى ميدان التعليم ـــ بكيفية عملية ملموسة ، الاجراءات التالية التى تمت أول الامر بشكل عفوى آلى : تعميم التعليم ، تعريبه ، مغربة اطره ، توحيده .

وهكذا نرى أن ما سمى فيما بعد بـــ «الاختيـــارات» الاساسيـــة لـــ «سياستنا» التعليمية ، والمعبر عنها بـــ «المبادىء الاربعة» : (التعميـــم ،

التوحيد ، التعريب ، مغربة الاطر) **هي في الحقيقة «اختيارات» فرضها الواقع قبل ان تقرر بكيفية رسمية .**

اما من الناحية النظرية ، اى من **ناحية «التخطيط»** الذى واجه بـه المسؤولون هذه المشكلة ، مشكلة التعليم ، التى فرضت نفسها ، على الرغم من تزاحم المشاكل الاخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلقد تشكلت لجنة لمعالجة شؤون التعليم واقرار اسس «مدرسة وطنية» و «مذهب تعليمى» تلك هى **«اللجنة الملكية لاصلاح التعليم»** التى عقدت اول اجتماع لها يـوم 28 — 9 — 1957 (هى فى الحقيقة احياء للجنة تحمل نفس الاسم شكلت اثناء الحماية ، وعقب الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فشلت فى مهمتها ، خاصة بعد أن عدل الفرنسيون عن سياسة «التفتح» التى سلكها اريك لابون — انظر الفصل الماضى) .

لقد كانت هذه اللجنة تضم خليطا من الشخصيات السياسية والثقافية والدينية ، يعكس تركيبها مختلف الاتجاهات التى كانت تتصارع فى «النخبة» القيادية ، داخل الحلف الوطنى المذكور . وقد خرجت اللجنة من دراستها لمشكل التعليم بـ «اختيارات اساسية» هى «المبادىء» الاربعة المذكورة : (التعميم، التوحيد ، التعريب ، مغربة الاطر) . **لقد جاءت هذه «الاختيارات» — كما سنوضح بعد قليل — تعكس الطابع «التوفيقى» لفكر هذه النخبة ، بقدر ما تعبر عن امر واقع فرض نفسه** . أما البحث عن الحلول الصحيحة الجذرية، أما ايجاد تخطيط محكم ، فذلك ما لم يكن فى امكان هذه اللجنة العثور عليه ، بل حتى التفكير فيه . فمصالح افرادها مختلفة ، ورؤاها متباينة ، ومشاغلها الحقيقية لم تكن التعليم بقدر ما كانت اشياء اخرى «اهم» من التعليم . ولذلك لجأت الى حل «توفيقى» وسط ، يرضى ميول الجميع ، ولكنه لا يطرح المشكل بالشكل الذى كان يجب أن يطرح به .

ان الطابع «التوفيقي» لهذه «المبادىء» واضـــح تماما : فالتعميـــم يرضى رغبة الجماهير فى تعليم ابنائها ، **والتوحيد** يرضى ذوى الميول العصرية واصحاب الميول التقليدية سواء بسـواء ، لان بامكان كل منهما أن يفهم منـــه ما يرضى اتجاهه ، واذا كان «التعميم» كمبدا وكواقع يميل الكفة نحو المدافعين عن التعريب،باعتبار ان الخطوة التى تمت فى ميدان التعليم استلزمت اوتوماتيكيا تعريبه من اسفل ، فان مبدا «مغربة» الاطر لا يلغى **الازدواجية** ، وبالتالـــى يعيد ميل الكفة للاتجاه المضاد .

لقد اقرت هذه «المبادىء» **فى جو المعارك «الصامتة»** التى كانت تجرى بين الاتجاهات المختلفة داخل الحلف الوطنى الذى كان ما يزال قائما آنذاك . ورغبة من الجميع فى استمرار «صمت» المعركة ، حفاظا على وحدة الصف التى كانت تهددها القوات المناوئة، والمشاكل المتفاقمة ، لم تطرح للمناقشة ـــ والى يومنا هذا ـــ طبيعة **العلاقة** التى يجب أن تقوم بين هـــذه «المبادىء» الاربعة ، وبالتالى لم تطرح مسالـــة **الاسبقيـــة** ، ولا كيفيـــة **تطبيق** هـــذه «الاختيارات» ولا **الخطوات المرحلية** .. شأن الحلول التوفيقية دائما .

لقد كانت هذه «المبادىء» ـــ كما قلنا ـــ تعبيرا او تنظيرا لواقع فرض نفسه ، فترك أمر تطبيقها لتموجات الحاضر والمستقبل ، الشىء الذى أدى الى فسح المجال للارتجال والتخبط والتراجع وغير ذلك من المظاهـــر التـــى سادت تعليمنا منذ الاستقلال الى اليوم .

* * *

وقبل تتبع مختلف «التموجات» التى عرفها تعليمنا منذ الاعلان عـــن الاستقلال الى اليوم ، لنلق نظرة عجلى على هذه «المبادىء» التى رصفت رصفا ، والتى كثيرا ما تتم الاشادة بها ، باعتبارها **«مبادىء سامية» صالحة**.

انها فعلا مبادىء سامية ، ولكن رصفها بهذا الشكل ، دون بيان علاقة بعضها ببعض وبالتالى دون تحديد ، من السابق فيها من اللاحق ، يجعل أمر تطبيقها خاضعا للصدفة ، مرهونا بتقلبات الاحوال ، ومن ثمة فانه لا يمكن القول انها تشكل «اختيارات أساسية» لـ «مذهب تعليمى» حقيقى .

لنناقش اولا المبداين التاليين : **تعريب التعليم ، ومغربة الاطر** ، ولنتساءل : هل هناك ما يستوجب الفصل بينهما وجعل كل منهما «مبدأ» قائما بنفسه . ان التعريب يتضمن حتما مغربة الاطر . فلماذا لم يكتف بمبدأ التعريب وحده؟

الواقع ان وضع مبدأ مغربة الاطر جنبا الى جنب مع مبدأ التعريب ، لا يمكن ان يفسر الا على أنه اجراء يقصد منه اقرار مبدأ تكوين الاطر باللغة الفرنسية ، وبالتالى استمرار الازدواجية ، وترك التعريب مجرد شعار أجوف للاستهلاك لا أقل ولا اكثر .

يتجلى هذا بصورة اوضح اذا نظرنا الى هذين المبداين فى علاقتهما بمبدأ «التوحيد» . وفى هذا الصدد نتساءل أيضا : هل هناك ما يستوجب الفصل بين «التعريب» و «التوحيد» وجعل كل منهما مبدأ قائما بنفسه ؟ اليس توحيد التعليم نتيجة حتمية لتعريبه ؟ ان تعريب التعليم يلغى بكيفية آلية تعدده ، لان مصدر هذا التعدد هو الازدواجية ... ولكن توحيد التعليم لا يتضمن حتما تعريبه ، اذ من الممكن تحقيق «التوحيد» فى ظل الازدواجية ، وهذا ما تم فعلا او يكاد .

لننظر الآن فى علاقة هذه المبادىء الثلاثة بالمبدأ الاخير «التعميم» ولنتساءل على الفور : هل يمكن تعميم التعليم فى المدن والبوادى تعميما جديا عمليا دون توفر العدد الكافى من الاطر المغربية المعربة ؟ وبالتالى هل يمكن — عمليا — تعميم التعليم دون تعريبه ؟ هل من الممكن الاعتماد على أطر غير

معربة ، اجنبية كانت أو مغربية ، فى نشر التعليم والثقافة فى البادية المغربية من اقصاها الى اقصاها ، فى جبالها وسهولها وصحرائها ؟؟

واضح ، اذن ، ان «المبادىء» الاربعة ، لا تصلح منفصلة لان تكون اساسا لسياسة تعليمية جدية ، كمذهب تعليمى وطنى . وذلك لسبب بسيط، هو ان هذه «المبادىء» ليست فى الحقيقة مبادىء أو اسسا ، او اختيارات جدية ، **وانما هى حلول توفيقية وسطى توفق بين الاتجاهات السائدة وتعكس امرا واقعا فرض نفسه .**

انها مبادىء تكرس التعدد والازدواجية وتفسح المجال واسعا للتراجع عن التعريب بدعوى مغربة الاطر أولا ، وعن التعميم بدعوى انخفاض المستوى بسبب التعريب ، وعن التوحيد بدعوى فتح المجال للمدارس الحرة والتعليم الاصلى ليساهم كل منهما فى «تعميم» التعليم ، مما يهىء تعليمنا لان يبقى دائرة فى حلقة مفرغة ، متخبطا ذات اليمين وذات الشمال ، كما حدث بالفعل ، وما زال يحدث الى الآن . والنتيجة الملموسة هى رجوعه الى ما كان عليه أيام الحماية ، اى استمرار كونه تعليما للنخبة .

وبعد ، فهل كان بامكان المسؤولين أن يفعلوا غير ما فعلوا ؟ مهما يكن الجواب عن هذا السؤال ، فان الشىء المؤكد هو ان الوضعية التعليمية كانت تتطلب آنذاك ، كما تتطلب اليوم ، **القيام بثورة ثقافية واسعة شاملة** ، كانت تستلزم حلولا جذرية اصيلة ، ولكن هل يمكن القيام بهذه الثورة الثقافية ، والعثور على هذه الحلول الجذرية فى ظل اوضاع **لم تتحقق فيها الثورة الاجتماعية والتغييرات الجذرية الضرورية ؟**

لم يكن استقلال المغرب نتيجة ثورة ، ولا وليد حرب تحريرية طويلة الامد ، وانما كان نتيجة حلول وسطى توفيقية ، كانت اجهاضا لثورة كانت فى طور المخاض ، فبقى النزيف ، نزيف الاجهاض ، يغذى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى اليوم .